أدب الوصايا في نهج البلاغة
ـ قراءة في خصائص الأسلوب ـ

أ. م. د. مزاحم مطر حسين
كلية التربية /جامعة القادسية

الخلاصة:

الوصايا من الفنون النثرية التي حرصت مدونات الأدب العربي على أن تفسح لها مساحة واسعة في صفحاتها،وأن تخصص لها أبوابا مستقلة تعبيرا منها عن الأهمية البالغة التي تتمتع بها،فهي زبدة المخاض العسير ،وخلاصة التجارب الطويلة،يصوغها الحكماء من هذه الأمة أقوالا ،ليقدموها لمن أراد الانتفاع منها، فيأخذوا الخبرة وقد كُفوا معاناة مكابدتها. وقد عُنيت هذه الدراسة باستقراء وصايا رجل من رجال هذه الأمة التي عُرف من بينها بالحكمة وشجاعة القول والعمل وهما قلما يتهيأن لرجل ،فذهبت الدراسة أولا إلى تقصي عناية كتب التراث بوصايا الإمام علي ــ ع ــ عموما ، ثم عكفت على دراسة وصاياه الوردة في نهج البلاغة خصوصا،فأحصت الدراسة الأنواع الفنية التي وردت عليها وصايا الإمام،ثم ذهبت إلى استقراء أهم الخصائص الأسلوبية التي تمتعت بها نصوص الوصايا.

تمهيد:

الوصايا من الفنون الأدبية الموروثة التي تشغل مساحة بارزة من كتب التراث ،وتتميز بمكانة مرموقة بينها،وقد عُني بها الأدب العربي منذ القدم؛لما تتضمنه تلك الوصايا من قيم وأفكار،فهي خلاصة مكثفة لتجارب عميقة في مختلف شؤون الحياة

ويمكن تعريف الوصية بأنها (لون من الكلام فيه توجيه وإبلاغ)[١] وأن محورها(يدور على إثارة المشاعر لفعل الخير وتجنب الشر)[٢] فهي إذن كلام مستخلص من تجارب الحياة،غالبا ما يتفوه بها من عُرف بين الناس بالحكمة،لينتفع بها من تُلقى إليه،ويتجنب الوقوع في الأخطاء.

ولكل وصية ثلاثة ركائز أساسية: المُوصي ،والمُوصى إليه،والشيء المُوصى به. ولعل الركن الأول هو العنصر الذي يُكسب الوصايا أهميتها ولذا لا بد أن يكون (المُوصي) ممن رُزق القدرة والتمكن من ناصية القول؛ليتمكن من إعطاء خلاصة مركزة عن تجربته الذاتية.ومن هنا تأتي أهمية هذا الموضوع الذي نحن بصدد دراسته؛ إذ لا مشاحة في أن صاحب نهج البلاغة هو من هو في فن القول وقد شهد له بذلك القاصي والداني ولعل الجاحظ (ت٢٥٥هـ) قد اختصر القول علينا حينما تحدث عن خطابة الخلفاء الأربعة،إذ رأى أن كلهم كان خطيبا (وكان علي أخطبهم)[٣].

وصايا الإمام علي ــ ع ــ في كتب التراث الأدبي:

وقد التفت مدونو الأدب منذ وقت مبكر إلى أهمية أدب الوصايا على نحو عام ووصايا الإمام علي (عليه السلام) على نحو خاص ؛فاتجهت عنايتهم لإفراد الأبواب الخاصة بأدب الوصايا فأفسحوا لها المجال في مصنفاتهم واعتنوا بهذا الأدب عناية بارزة لا تقل عن عنايتهم بالفنون الأدبية الأخرى ،ثم إنك لا تجد كتابا من هذه الكتب التي أفردت بابا خاصا لأدب الوصايا إلا وجدت ذلك الكتاب قد احتفل على نحو خاص بوصايا الإمام علي (عليه السلام) فأدرجها في الباب الذي خصصه لأدب الوصايا،وفي هذا ما ينبئ بما تتبوأه تلكم الوصايا من أهمية لدى كتّاب الأدب ، ولعل من أقدمهم في

هذا الشأن سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني(٢٤٨هـ)فقد ألف كتاب (المعمرون والوصايا) وأورد بعض وصايا الإمام ــ ع ــ ومنها:

وصيته للحسن والحسين ــ عليهما السلام ــ وهي:

(أوصيكما بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء منها زوي عنكما، قولا الحق، وارحما اليتيم، وأعينا الضائع، وأضيفا الجائع، وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً، ولا تأخذكما في الله لومة لائم.ثم نظر إلى ابن الحنفية، فقال: – هل فهمت ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعم. قال: أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك، وتزيين أمرهما، ولا تقطع أمراً دونهما. وقال لها:أوصيكما به، فإنه شقيقكما، وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباكما كان يحبّه، فأحبّاه.)[٤].

كما أورد وصيته للإمام الحسن ــ ع ــ:(هذا ما أوصى به علي بن أبي طالب، أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمد عبده ورسوله، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، ثم إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت، وأنا أول المسلمين.

وإني أوصيك يا حسن وجميع ولدي ومن بلغه هذا بتقوى الله ربكم، ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا، فإني سمعت حبيبي رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: صلاح ذات البين أفضل من عام الصيام والصلاة، انظروا ذوي أرحامكم فصلوهم يهون عليكم الحساب، والله الله في الأيتام، فلا تغيّرنّ أفواههم بحضرتكم، والله، الله في الضَّعيفين، فإن آخر ما تكلم به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قال: أوصيكم بالضعيفين خيرا. والله، الله في القرآن فلا يسبقكم بالعمل به غيركم، والله، الله في الصلاة، فإنها عمود دينكم، والله، الله في الزكاة فإنها تطفئ غضب ربكم عنكم، والله الله في صيام رمضان فإن في صيامه جنَّة لكم من النار، والله، الله في الحج فإن بيت الله إذا خلا لم تناظروا، والله، الله في الفقراء والمساكين، فشاركوهم في معايشكم وأموالكم. عليكم يا بنيّ بالبر والتواصل والتبار، وإياكم والتقاطع والتدابر والتفرق، وتعاونوا على البّر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان، حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ فيكم نبيَّكم، صلى الله عليه وسلم.)[٥].

وألف المبرد(٢٨٦هـ) كتاب (التعازي والمراثي) وأفرد فيه بابا للوصايا وأورد فيه وصية الإمام ــ ع ــ للحسن والحسين ــ عليهما السلام ــ:

(إني أوصيكما بتقوى الله، ولا تبغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تبكيا على شيء منها زوي عنكما. قولا الحق، وارحما اليتيم، وأعينا الضالع، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً، ولا تأخذكما في الله لومة لائم.

ثم نظر إلى ابن الحنفية فقال له: فهمت ما أوصيت به أخويك؟ قال: نعم. قال: أوصيك بمثله، وأوصيك بتوقير أخويك، وتزيين أمرهما، ولا تقطع أمراً دونهما ثم قال: وأوصيكما به فإنه شقيقكما، وابن أبيكما، وقد علمتما أن أباه كان يحبه فأحباه)[٦].

وممن افرد بابا لأدب الوصايا واحتفل فيه بوصايا الإمام (عليه السلام) ابن عبد البر(٤٦٣هـ)صاحب كتاب (بهجة المجالس وانس المجالس) فقد خصص بابا بعنوان(باب الوصايا الموجزة) أورد فيه بعض وصايا الإمام قائلا:

(كان علي بن أبي طالب إذا أراد أن يستعمل رجلا دعاه فأوصاه، وقال: عليك بتقوى الله الذي لابد من لقائه، ولا منتهى لك دونه، فإنه يملك الدنيا والآخرة، وعليك فيما امرك به بما يقربك من الله، فإن ما عنده خلف من الدنيا.)[٧].

كما ذكر أحدى وصايا الإمام لابنه الحسن ــ ع ــ (قال عليّ بن أبي طالب في وصيته لابنه: لا مال أعوذ من العقل، ولا فقر أشدّ من الجهل، ولا وحدة أوحش من العجب، ولا مظاهرة كالمشاورة، ولا حسب كحسن الخلق)[٨].

أما ابن حمدون(٥٦٢هـ) صاحب (التذكرة الحمدونية) فقد خصص الباب الخامس عشر للعهود والوصايا،وتحدث عن أهمية وصية الإمام لابنه الحسن ــ ع ــ وشهرتها وما فيها من الآداب والحكم قائلا:(وأما علي بن أبي طالب عليه السلام فله وصية طويلة مشهورة إلى ابنه الحسن، وفيها حكم وآداب قد ضمنت هذا الكتاب بعضها في أماكن منه متفرقة)[٩].

كما نقل لنا إحدى وصايا الإمام لابنه محمد ابن الحنفية قائلا:(وله وصية كتبها إلى ابنه محمد بن الحنفية: أن تفقه في الدين وعود نفسك الصبر على المكروه، وكل نفسك في أمورك كلها إلى الله،فإنك تكلها إلى كاف حريز ومانع عزيز. وأخلص المسالة لربك فإن في يده العطاء والحرمان، وأكثر الاستخارة لله والاستنجاد به. واعلم أن من كان مطيته الليل والنهار يسار به وإن كان لا يسير، وأن الله تعالى قد أبى إلا خراب الدنيا وعمارة الآخرة، فإن تزهد فيها زهدك كله فلعل ذلك يقيك. وإن كنت غير قابل نصيحتي إياك فاعلم علماً يقيناً أنك لن تبلغ أملك ولن تعدو أجلك، فإنك في ديوان من كان قبلك، فأكرم نفسك عن كل دنية، وإياك إن ساقتك إلى رغب فإنك لن تعتاض بما ابتذلت من نفسك. وإياك أن توجف بك مطايا الطمع وتقول: متى ما أؤخره يذهب، فإن هذا أهلك من هلك قبلك، وأمسك عليك لسانك، فإن تلافيك ما فرط من صمتك أيسر من إدراك ما فات من نطقك. واحفظ ما في الوعاء بشد الوكاء، فحسن التدبير مع الاقتصاد أكفى لك من الكثير مع الفساد، والعفة مع الحرفة خير من السرور مع الفجور. والمرء أحفظ لسره. ورب ساع في ما يكره. وإياك والاتكال على الأماني فإنها بضائع النوك وتثبيط عن الآخرة والأولى. ومن خير حظ قرين صالح، فقارن أهل الخير تكن منهم، وباين أهل الشر تبن منهم، ولا يغلب عليك سوء الظن فإنه لا يدع بينك وبين خليل صلحاً. أذك قلبك بالأدب كما تذكى النار بالحطب، واعلم أن كفر النعمة لؤم، وصحبة الأحمق شؤم، ومن الكرم منع الحرم. ومن حلم ساد، ومن تفهم ازداد.

امحض أخاك النصيحة، حسنة كانت أو قبيحة، ولا تصرمه على ارتياب، ولا تقطعه دون استعتاب. وليس جزاء من يسرك أن تسوءه.

الرزق رزقان: رزق تطلبه ورزق يطلبك وإن لم تأته أتاك. واعلم يا بني أن ما لك من دنياك إلا ما أصلحت به مثواك، فأنفق من خيرك، ولا تكن خازناً لغيرك. وإن جزعت على ما تفلت من يدك، فاجزع على ما لم يصل إليك. وربما أخطأ البصير قصده، وأبصر الأعمى رشده. لم يهلك امرؤ اقتصد، ولم يفتقر من زهد.

من ائتمن الزمان خانه، ومن تعظم عليه أهانه. ورأس الدين اليقين، وتمام الإخلاص اجتناب المعاصي. وخير المقال ما يصدقه الفعال. سل عن الرفيق قبل الطريق، وعن الجار قبل الدار. واحمل لصديقك عليك، واقبل عذر من اعتذار إليك. وأخر الشر ما استطعت فإنك إذا شئت تعجلته. ولا تكونن على قطيعتة أقوى منك على صلتة، وعلى الإساءة أقوى منك على الإحسان.

لا تملكن المرأة من الأمر ما يجاوز نفسها، فإن المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة، فإن ذلك أصلح لحالها. واغضض بصرها بسترك، واكففها بحجابك. وأكرم الذين بهم تصول، فإذا تطاولت فبهم تطول.

أسأل الله أن يلهمك الرشد، ويقويك على العمل بكل جميل، ويصرف عنك كل محذور برحمته، والسلام عليك)[١٠].

ويأتي أسامة بن منقذ(٥٨٤هـ) بعد ذلك ليؤلف كتاب (لباب الآداب) فيخصص باباً مستقلا لأدب الوصايا تحت عنوان(باب الوصايا) ليورد فيه وصية الإمام لولده الحسن ــ ع ــ عندما دخل عليه باكيا بعدما ضربه ابن ملجم(فقال: ما يبكيك يا بني؟ قال: وما لي لا أبكي، وأنت في أول يوم من الآخرة وآخر يوم من الدنيا؟! قال يا بني، احفظ عني أربعاً وأربعاً، لا يضرك ما عملت معهن. قال: وما هن يا أبَه؟ قال: "أغنى الغنى العقل، وأكبر الفقر الحمق، وأوحش الوحشة العُجب، وأكرم الحسب

حسن الخُلق ". قال: يا أبَهْ هذه الأربع فأعطني الأربع. قال: "يا بني، إياك ومصادقة الكذاب؛ فإنه يقرّب عليك البعيد، ويبعد عليك القريب. وإياك ومصادقة الأحمق؛ فإنه يريد أن ينفعك فيضرك. وإياك ومصادقة البخيل؛ فإنه يقعد عنك أحْوج ما تكون إليه. وإياك ومصادقة الفاجر، فإنه يبيعك بالتافه)[١١].

أما النويري (٧٣٣هـ) صاحب كتاب (نهاية الأرب في فنون الأدب) فقد اعتنى بأدب الوصايا بتخصيص أكثر من موضع من كتابه للحديث عنها، كما هو الحال في القسم الخامس من الجزء السادس الذي جعله في الملك وما يشترط فيه وما يحتاج اليه،إذ جعل الباب الرابع تحت عنوان (في وصايا الملوك) ذكر فيه مجموعة من وصايا من عُرف بالحكمة ،ثم اتجه للحديث عن وصايا الإمام ــ ع ــ قائلا:(ولم أر فيما طالعته من هذا المعنى أجمع للوصايا ولا أشمل من عهدٍ كتبه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى مالك بن الحارث الأشتر حين ولاّه مصر، فأحببت أن أورده على طوله وآتي على جملته وتفصيله، لأن مثل هذا العهد لا يهمل، وسبيل فضله لا يجهل)[١٢].ثم أخذ بسرد النص بطوله.

وممن عقد بابا للوصايا ابن عاصم(٨٢٩هـ)صاحب كتاب (حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر) فقد جعل الحديقة الرابعة تحت عنوان (في الوصايا والحكم) وقد أورد فيه إحدى وصايا الإمام علي بن أبي طالب ــ ع ــ التي يذهب فيها الإمام إلى أنه لا راحة لحسود، ولا إخاء لملول، ولا محب لسيئ الخلق[١٣].

أما الابشيهي(٨٥٢هـ) صاحب كتاب(المستطرف في كل فن مستظرف) فقد جعل الباب الثاني عشر (في الوصايا الحسنة والمواعظ المستحسنة وما أشبه ذلك) وقد أورد في هذا الباب وصية الإمام للحسن والحسين ــ ع ــ :

(أوصيكما بتقوى الله تعالى، والرغبة في الآخرة، والزهد في الدنيا، ولا تأسفا على شيء فاتكما منها، فإنكما عنها راحلان. افعلا الخير وكونا للظالم خصماً، وللمظلوم عوناً، ثم دعا محمداً ولده وقال له: أما سمعت ما أوصيت به أخويك، قال: بلى. قال: فإني أوصيك به، وعليك ببر أخويك وتوقيرهما، ومعرفة فضلهما، ولا تقطع أمراً دونهما، ثم أقبل عليهما وقال: أوصيكما به خيراً، فإنه أخوكما وابن أبيكما وأنتما تعلمان أن أباه كان يحبه، فأحباه، ثم قال: يا بني أوصيكم بتقوى الله في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الغنى والفقر، والعدل في الصديق والعدو، والعمل في النشاط والكسل، والرضا عن الله في الشدة والرخاء، يا بني ما شر بعده الجنة بشر، ولا خير بعده النار بخير، وكل نعيم دون الجنة حقير، وكل بلاء دون النار عافية، يا بني من أبصر عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره، ومن رضي بما قسم الله له لم يحزن على ما فاته، ومن سل سيف البغي قتل به، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها، ومن هتك حجاب أخيه هتكت عورات بنيه، ومن نسي خطيئته استعظم خطيئة غيره، ومن أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن خالط الأنذال احتقر، ومن دخل مداخل السوء اتهم، ومن جالس العلماء وقر، ومن مزح استخف به، ومن أكثر من شيء عرف به، ومن كثر كلامه كثر خطؤه وقل حياؤه، ومن قل حياؤه قل ورعه، ومن قل ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار. يا بني الأدب ميزان الرجل، وحسن الخلق خير قرين، يا بني العافية عشرة أجزاء: تسعة منها في الصمت إلا عن ذكر الله تعالى،وواحدة في ترك مجالسة السفهاء، يا بني زينة الفقر الصبر، وزينة الغنى الشكر. يا بني لا شرف أعلى من الإسلام ولا كرم أعز من التقوى ولا شفيع أنجح من التوبة، ولا لباس أجمل من العافية. يا بني الحرص مفتاح التعب ومطية النصب)[١٤].

كانت هذه إطلالة على وصايا الإمام علي ــ ع ــ في الكتب الأدبية التي أفردت أبوابا خاصة لأدب الوصايا، تبين من خلالها الاهمية التي تتمتع بها هذه الوصايا في كتب التراث الأدبي.ونريد الآن أن نتوجه لتفحص وصايا الإمام في نهج البلاغة على نحو الخصوص.

الأنواع الفنية للوصايا في نهج البلاغة:

تضمن نهج البلاغة نصوصا قيمة تندرج تحت أدب الوصايا مبثوثة في الخطب والرسائل والحكم القصيرة،ويمكن إرجاع الوصايا الوردة في نهج البلاغة إلى الأنواع الآتية:

أولا: وصايا التأديب والإرشاد: وهي الوصايا التي نحت منحى النصح والإرشاد والتوجيه والموعظة،ويمكن تقسيم هذه الوصايا على قسمين اثنين:

١ــ ما جاء بلفظ الوصية: وهي الوصايا التي تضمنت لفظ الوصية أو أحد مشتقاتها،ونجدها متكررة في الخطب التي كان الإمام(عيه السلام) يرتجلها أمام الناس،و تكون هذه الوصية مصدرة بعبارة (أوصيكم) ثم يتبعها الإمام بالشيء الموصى به، يعقب ذلك تعليل وتوضيح وشرح لسبب ذلك الأمر المتقدم.فأسلوب هذه الوصايا التأديبية يجري على النسق الآتي:

أوصيكم + الشيء الموصى به + التعليل

ومن أمثلة هذا النوع من الوصايا ما ورد في الخطبة (الغراء) إذ يقول الإمام بعد حمد الله والثناء عليه:

(أوصِيكُمْ عِبَادَ اللهِ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي ضَرَبَ لَكُمُ الأمثال ، وَوَقَّتَ لَكُمُ الآجال ، وَأَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ ، وأرفع لَكُمُ المَعَاشَ ، وَأَحَاطَ بِكُمُ الإحصاء ، وَأَرْصَدَ لَكُمُ الْجَزَاءَ ، وَآثَرَكُمْ بِالنِّعَمِ السَّوَابِغِ، وَالرِّفْدِ الرَّوَافِغِ ، وَأَنْذَرَكُمْ بِالْحُجَجِ الْبَوَالِغِ ، فَأَحْصَاكُمْ عَدَداً، ووَظَّفَ لَكُمْ مُدَداً ، فِي قَرَارِ خِبْرَةٍ ، وَدَارِ عِبْرَةٍ، أَنْتُمْ مُخْتَبَرُونَ فِيهَا، وَمُحَاسَبُونَ عَلَيْهَا)(١٥).

ثم ذهب إلى تنفير الناس من الدنيا ،وتذكيرهم بالبعث بعد الموت،وتنبيه الخلق وتذكيرهم بضروب النعم،والتحذير من هول الصراط،ثم عاد الإمام إلى الوصية بالتقوى مرة أخرى قائلا:

(أوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ الَّذِي أَعْذَرَ بِمَا أَنْذَرَ، وَاحْتَجَّ بِمَا نَهَجَ، وَحَذَّرَكُمْ عَدُوّاً نَفَذَ فِي الصُّدُورِ خَفِيّاً، وَنَفَثَ فِي الآذَانِ نَجِيّاً، فَأَضَلَّ وَأَرْدَى، ووَعَدَ فَمَنَّى، وَزَيَّنَ سَيِّئَاتِ الْجَرَائِمِ، وَهَوَّنَ مُوبِقَاتِ الْعَظَائِمِ، حَتَّى إِذَا اسْتَدْرَجَ قَرِينَتَهُ، وَاسْتَغْلَقَ رَهِينَتَهُ، أَنْكَرَ مَا زَيَّنَ، وَاسْتَعْظَمَ مَا هَوَّنَ، وَحَذَّرَ مَا أَمَّنَ)(١٦).

ومن خطبة له (عليه السلام) في التزهيد من الدنيا: **(أوصِيكُمْ عِبادَ اللهِ بِالزَّقْضِ لِهذِهِ الدُّنْيَا التَّارِكَةِ لَكُمْ وَإِنْ لَمْ تُحِبُّوا تَرْكَهَا، وَالْمُبْلِيَةِ لأجسامكم وَإِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ تَجْدِيدَهَا، فَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ وَمَثَلُهَا كَسَفْرٍ سَلَكُوا سَبِيلاً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ قَطَعُوهُ، وَأَمُّوا عَلَماً فَكَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَغُوهُ وَكَمْ عَسَى الْمُجْرِي إِلَى الْغَايَةِ أَنْ يَجْرِيَ إِلَيْهَا حَتَّى يَبْلُغَهَا! وَمَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَقَاءُ مَنْ لَهُ يَوْمٌ لاَ يَعْدُوهُ، وَطَالِبٌ حَثِيثٌ مِن الموت يَحْدُوهُ ، ومزعج فِي الدُّنْيَا حَتَّى يُفَارِقَهَا رغما عنه)**(١٧).

والأمثلة على هذا النوع من الوصايا متعددة(١٨)

٢ ــ ما لم يأت بلفظ الوصية: وهي مجموعة من التعاليم والوصايا لم يرد فيها لفظ الوصية أو أحد مشتقاتها صراحة؛غير أنها تدور في إطار الوصايا ذاته ،وتتمتع بميزاتها،وهو ما حدا بالشريف الرضي إلى أن يسلكها في سلك الوصايا ويضعها تحت عنوان الوصية في مواضع متعددة من نهج البلاغة،وقد وردت هذه المجموعة بصورتين:

أ ــ وصايا الأفراد: وهي مجموعة من الوصايا أسداها الإمام إلى أشخاص معينين معروفين بأسمائهم وشخوصهم،تتناسب هذه الوصايا مع ظروفهم وتكاليفهم المنوطة بهم.ومن أمثلة وصايا الأفراد وصيته لعبد الله بن العباس عند استخلافه إياه على البصرة:

(سَعِ النَّاسَ بوَجْهِكَ وَمَجْلِسِكَ وَحُكْمِكَ، وإِيَّاكَ وَالْغَضَبَ فَإِنَّهُ طَيْرَةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ وَاعْلَمْ أَنَّ مَا قَرَّبَكَ مِنَ اللهِ يُبَاعِدُكَ مِنْ النَّارِ، وَمَا بَاعَدَكَ مِنَ اللهِ يُقَرِّبُكَ مِنَ النَّارِ)(١٩).

ومن أمثلتها وصيته لابن عباس أيضا عندما بعثه للاحتجاج على الخوارج:

(لاَ تُخَاصِمْهُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوه، تَقُولُ وَيَقُولُونَ، وَلَكِنْ حَاجِّهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصاً)(٢٠)

ومن أمثلتها ما وصىّ به شريح بن هانئ لما جعله على مقدمته إلى الشام:

(اتَّقِ اللهَ فِي كُلِّ صَبَاح وَمَسَاء، وَخَفْ عَلَى نَفْسِكَ الدُّنْيَا الْغَرُورَ، وَلاَ تَأْمَنْهَا عَلَى حَال، وَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ لَمْ تَرْدَعْ نَفْسَكَ عَنْ كَثِير مِمَّا تُحِبُّ، مَخَافَةَ مَكْرُوهِهِ، سَمَتْ بِكَ الأهواء إِلَى كَثِير مِنَ الضَّرَرِ. فَكُنْ لِنَفْسِكَ مَانِعاً رَادِعاً، وَلِنَزْوَتِكَ عِنْدَ الْحَفِيظَةِ وَاقِماً قَامِعاً)(٢١).

ومن أمثلتها أيضا وصيته لمعقل بن قيس الرياحي حين أنفذه إلى الشام في ثلاثة آلاف مقدّمة له:

(اتَّقِ اللهَ الَّذِي لاَبُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلاَ مُنْتَهَى لَكَ دُونَهُ، وَلاَ تُقَاتِلَنَّ إِلاَّ مَنْ قَاتَلَكَ، وَسِرِ الْبَرْدَيْنِ،وَعَوِّرْ بِالنَّاسِ، وَرَفِّهْ فِي السَّيْرِ، وَلاَ تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَهُ سَكَناً، وَقَدَّرَهُ مُقَاماً لاَ ظَعْناً، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ، فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ، فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً، وَلاَ تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ، وَلاَ تَبَاعَدْ مِنهم تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي، وَلاَ يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلَى قِتَالِهِمْ، قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالأعْذَارِ إِلَيْهِمْ)(٢٢).

ب ــ وصايا الجماعات: وهي مجموعة من الوصايا وجهها الإمام إلى فئات من الناس يربطهم رباط واحد،كالجيوش وعمال الصدقات،ومن أمثلتها هذه الوصية التي كان الإمام يكتبها لمن يستعمله على الصدقات:

(انْطَلِقْ عَلَى تَقْوَى اللهِ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَلاَ تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً، وَلاَ تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً، وَلاَ تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكثرَ مِنْ حَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ. فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى الْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، حَتَّى تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ، وَلاَ تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ ، ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ اللهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللهِ وَخَلِيفَتُهُ، لآخذ مِنْكُمْ حَقَّ اللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ لِلَّهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ؟ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لاَ، فَلاَ تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تَعْسِفَهُ أَوْ تُرْهِقَهُ ، فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَب أَوْ فِضَّة، فَإِنْ كَانَتْ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلاَ تَدْخُلْهَا إِلاَّ بِإِذْنِهِ، فَإِنَّ أَكْثرَهَا لَهُ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلاَ تَدْخُلْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّط عَلَيْهِ وَلاَ عَنِيف بِهِ، وَلاَ تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلاَ تُفْزِعَنَّهَا،وَلاَ تَسُوءَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا، وَاصدع الْمَالَ صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلاَ تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ، ثُمَّ أصدع الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلاَ تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَ، فَلاَ تَزَالُ بِذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ، فَاقْبِضْ حَقَّ اللهِ مِنْهُ، فَإِنِ اسْتَقَالَكَ فَأَقِلْهُ ، ثُمَّ اخْلِطْهُمَا، ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلاً حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ. وَلاَ تَأْخُذَنَّ عَوْداً ، وَلاَ هَرِمَةً ، وَلاَ مَكْسُورَةً، وَلاَ مَهْلُوسَةً ، وَلاَ ذَاتَ عَوَار . وَلاَ تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلاَّ مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ، رَافِقاً بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوصِلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ. وَلاَ تُوَكِّلْ بِهَا إِلاَّ نَاصِحاً شَفِيقاً، وَأَمِيناً حَفِيظاً، غَيْرَ مُعَنِّف وَلاَ مُجْحِف ، وَلاَ مُلْغِب وَلاَ مُتْعِب. فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ: أَلاَّ يَحُولَ بَيْنَ نَاقَة وَبَيْنَ فَصِيلِهَا ، وَلاَ يَمْصُرَ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذَلِكَ بِوَلَدِهَا، وَلاَ يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا، وَلْيُرَفِّهْ عَلَى اللاَّغِبِ ، وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّقِبِ وَالظَّالِعِ ، وَلْيُوِرِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدُرِ ، وَلاَ يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الأرض إِلَى جَوَادِّ الطُّرُقِ ، وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ، وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ وَالأعشاب، حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللهِ بُدَّناً مُنْقِيَات ، غَيْرَ مُتْعَبَات وَلاَ مَجْهُودَات ، لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ(عليه السلام) فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لأجرك، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ)(٢٣).

ومن أمثلتها هذه الوصية التي وصّى بها الإمام(عليه السلام) جيشاً بعثه إلى العدو

(فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ، فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ الأشراف، أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ، أَوْ أَثْنَاءِ الأنهار، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِدْءاً، وَدُونَكُمْ مَرَدّاً، وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْه وَاحِد أَو اثْنَيْنِ، وَاجْعَلُوا لَكُمْ

رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي الْجِبَالِ، وَمَنَاكِبِ الْهِضَابِ، لِئَلاَّ يَأْتِيَكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ. وَاعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ، وَعُيُونَ الْمُقَدِّمَةِ طَلاَئِعُهُمْ. وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ، فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعاً، وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعاً، وَإِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً، وَلاَ تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلاَّ غِرَاراً أَوْ مَضْمَضَةً)(٢٤).

ثانيا: وصايا الوفاة:

أما النوع الثاني من الوصايا التي تضمنها نهج البلاغة فهي وصايا الوفاة ونقصد بها تلك الوصايا التي عادة ما يتفوه بها المرء قُبيل شعوره باقترابه من نهاية الحياة وفي ساعة الاحتضار وقرب الأجل.ومن أمثلتها هذه الوصية التي قالها الإمام عليه السلام قبل شهادته:

(أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ امرئٍ لاَقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ، والأجل مَسَاقُ النَّفْسِ، وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ. كَمْ أَطْرَدْتُ الأيام أَبْحَثُهَا عَنْ مَكْنُونِ هذا الأمر، فَأَبَى اللهُ إِلاَّ إِخْفَاءَهُ، هَيْهَاتَ! عِلْمٌ مَخْزُونٌ!

أَمَّا وَصِيَّتِي: فَاللهَ لاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّداً فَلاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ، أَقِيمُوا هذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلاَكُمْ ذَمٌّ مَالَمْ تَشْرُدُوا، حُمِّلَ كُلُّ امرئٍ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهَلَةِ، رَبٌّ رَحِيمٌ، وَدِينٌ قَوِيمٌ، وَإِمَامٌ عَلِيمٌ. أَنَا بِالأمس صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ اللهُ لِي وَلَكُمْ! إِنْ تَثْبُتِ الْوَطْأَةُ فِي هذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذَاكَ، وَإِنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ فَإِنَّا كُنَّا فِي أَفْيَاءِ أَغْصَانٍ، وَمَهَابِّ رِيَاحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمَامٍ، اضْمَحَلَّ فِي الْجَوِّ مُتَلَفِّقُهَا، وَعَفَا فِي الأرض مَخَطُّهَا. وَإِنَّمَا كُنْتُ جَاراً جَاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً، وَسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلاَءً سَاكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ، وَصَامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ لِيَعِظَكُمْ هُدُوِّي، وَخُفُوتُ إِطْرَاقِي، وَسُكُونُ أَطْرَافِي، فَإِنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ وَالْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ. وَدَاعِي لَكُم وَدَاعُ امرئٍ مُرْصِدٍ لِلتَّلاَقِي! غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي، وَيُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِرِي، وَتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكَانِي وَقِيَامِ غَيْرِي مَقَامِي)(٢٥).

وقد أعاد الشريف الرضي بعض فقرات هذه الوصية في موضع آخر معللا ذلك بقوله(وقد مضى بعض هذا الكلام فيما تقدّم من الخطب، إلاّ أنّ فيه هاهنا زيادة أوجبت تكريره)(٢٦).مما يعتبر قرينة واضحة على أن الوصيتين ما هما في الحقيقة إلا وصية واحدة ،غير أن الرضي اجتزأ منها في الموضع الأول بعض الفقرات ثم عاد في الموضع الثاني إلى إعادة بعض فقرات الوصية المتقدمة مع زيادة حديث الإمام عن ولي دمه في حال بقائه على قيد الحياة ،وترغيبه أولاده بفضيلة العفو واستشهاده على ذلك بالنص القرآني،وعدم فجأته بوارد الموت،إذ يقول الإمام ــ ع ــ:

(وَصِيَّتِي لَكُمْ: أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً، وَمُحَمَّداً(صلى الله عليه وآله) فَلاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ، أَقِيمُوا هذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَخَلاَكُمْ ذَمٌّ .أَنَا بِالأمس صَاحِبُكُمْ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ، إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَأعفوا (أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ) وَاللهِ مَا فَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ، وَلاَ طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ، وَمَا كُنْتُ إِلاَّ كَقَارِبٍ وَرَدَ، وَطَالِبٍ وَجَدَ، (وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأبرار)(٢٧)

ويظهر واضحا من الجمع بين كلام الشريف الرضي الذي قدّم به للوصيتين، إن هذه الوصية بقسميها في الموضعين ،قد قالها الإمام بعد أن ضربه ابن ملجم ــ لعنه الله ــ قُبيل شهادته ــ ع ــ وأنها قد قِيلت بمحضر جمع من الناس بدليل قولة الإمام في بداية الوصية في الموضع الأول (أيها الناس)؛ مما يعطي للوصية طابع الوصية العامة في غالب فقراتها،إلا ما يخص حديثه عن الأخذ بدمه فهي فقرة تخص أهل بيته،فهم وحدهم من يحق لهم المطالبة بالقصاص بهذا الأمر.

أما المضمون العام لهذه الوصية بقسميها،فهو يتلخص بدعوة الإمام للتوحيد الخالص وعدم الشرك بالله،والحرص التام على سنة الرسول الكريم،وتذكير الناس بحتمية لقاء الموت الذي طالما رغب الإنسان في الفرار منه،وان المنية تظل طي الغيب مهما اجتهد المرء في معرفة وقتها،فهي من

قبيل العلم المخزون الذي يأبى الله إلا إخفاءه ،وضرورة الاعتبار بالموتى متخذا من نفسه خير عبرة لمن يريد الاعتبار ،فهو بالأمس كان الصاحب ،واليوم صار عبرة.

ومن أمثلة هذا النوع من الوصايا ،ما كتبه الإمام ــ ع ــ لابنه الحسن ــ ع ــ بحاضرين عند انصرافه من صفين،وقد جاء في مقدمتها:

(مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدَّهْرِ، الذَّامِ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَى، الظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً، إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لاَ يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الأسقام ،رَهِينَةِ الأيام، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَحَلِيفِ الْهُمُومِ،قَرِينِ الأحزان، وَنُصْبِ الآفات، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الأموات)[٢٨].

والوصية طويلة تضمنت ضروبا من النصح والتوجيه فيما يخص أمور الدين والدنيا والآخرة.

ومن أمثلة وصايا الوفاة تلك الوصية التي كتبها لأولاده يوصيهم بما يُعمل في أمواله،وقد كتبها أيضا بعد انصرافه من صفين،جاء في مقدمتها(**هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِب أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، لِيُولِجَه بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَه به الأمَنَةَ.**

منها:

فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذلِكَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيّ، يأكُلُ مِنْهُ بِالْمعْرُوفِ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ فِي الْمَعْرُوفِ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ، قَامَ بِالأمر بَعْدَهُ، وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ. وَإِنَّ لِابْنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيّ، وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِذلِكَ إِلَى ابْنَيْ فَاطِمَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، وَقُرْبَةً إِلَى رَسُولِ اللهِ(صلى الله عليه وآله)، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ.

وَيَشْتَرِطُ عَلَى الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ الْمَالَ عَلَى أُصُولِهِ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أَمِرَ بِهِ وَهُدِيَ لَهُ،أَلاَّ يَبِيعَ مِنْ أَوْلاَدِ نَخِيلَ هذِهِ الْقُرَى وَدِيَّةً حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً.

وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي ــ اللاَّتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ ــ لَهَا وَلَدٌ، أَوْهِيَ حَامِلٌ، فَتُمْسَكُ عَلَى وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ، فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ، قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا الرِّقَّ، وَحَرَّرَهَا الْعِتْقُ)[٢٩].

هذه كانت الأنواع الفنية للوصايا التي وردت في نهج البلاغة،وهي كما بدا واضحا من سياق أمثلتها ،تدور على محورين اثنين : فهي إما وصايا تربوية أخلاقية وإما وصايا إدارية تتعلق بتنظيم شؤون الرعية وترتيب أمورها

وقد انتظمت هذه الوصايا عموما في قسمين: الأول: وصايا التأديب والإرشاد التي منها ما جاء بلفظ الوصية ومنها ما لم يجئ بلفظ الوصية وإنما دار في فلك الوصية ،والثاني:وصايا الوفاة التي توجه بها الإمام عند شعوره باقتراب دنو اجله والتي يكاد يطغى عليها الطابع الخاص إذ هي في غالب شأنها موجهة إلى أفراد أسرته ومتعلقة بشؤونهم الخاصة.

الخصائص الأسلوبية للوصايا في نهج البلاغة:

تبين من خلال عرض الأنواع الفنية لوصايا الإمام علي ــ ع ــ في نهج البلاغة أنها تتميز بمجموعة من الخصائص الأسلوبية المميزة،يمكن إجمالها بالاتي:

التكرار :

يلحظ أن أهم خصائص الأسلوب التي تميز وصايا التأديب والإرشاد(التي جاءت بلفظ الوصية)أنها وردت على نسق أراد الإمام منه أن يكون ثابتا ومتكررا،يجري على ذكر عبارة أوصيكم ثم ذكر الشيء الموصى به ثم تعليل هذه الوصية،فالإمام يدرك تماما ما يفعله أسلوب التكرار من أثر في النفوس ،فهو من أهم وسائل إثبات الفكرة وترسيخها في الأذهان؛كما يُلحظ غلبة الجمل الوصفية الخبرية، التي تميل إلى القصر،وإيضاح الفكرة بإعادتها بأسلوب آخر وهو ما يتناسب مع تصنيفها تماما لأنها وصايا تذكير ووعظ وتأديب وإرشاد.

الاسلوب الانشائي:

أما وصايا التأديب والإرشاد (التي لم تأت بلفظ الوصية) فيبدو واضحا أن أهم خصائصها الأسلوبية،هو غلبة الجمل الإنشائية عليها عموما ،كما يلحظ أن أسلوب الأمر بصيغة (فعل الأمر) هو الأكثر ورودا في الوصايا الموجه للأفراد،يأتي بعده أسلوب النهي ليحقق حضورا اقل،بينما حقق أسلوب النهي حضورا واضحا في وصايا الجماعات،ولعل السبب في غلبة أسلوب الأمر في الوصايا الموجهة للأفراد وغلبة أسلوب النهي في الوصايا الموجهة للجماعات يكمن في فهم الإمام لما يُراد من كل منهما ،فالمنتظر من الأفراد ــ وهم شخصيات قيادية ــ أن يحققوا المزيد من العطاء،ويُتوقع منهم مزيدا من التقدم فهم شخصيات غير اعتيادية؛ولذا ناسبهم أسلوب الأمر هنا تماما،لأنه يطلب حصول الأفعال ويحث عليها ،أما الجماعات ــ وهم السواد الأعظم من الناس ــ فإن التقدم ليس من شأنهم فهم تابعون لمن يقودهم وإنما يطلب منهم الكف عن الأفعال التي قد تُسيء إلى سمعة المجموع؛ولذا ناسبها غلبة أسلوب النهي عليها.

أما وصايا الوفاة فلا تبتعد كثيرا عن وصايا التأديب والإرشاد في غلبة الجمل الإنشائية،غير أنها امتازت بمجيء مقدمات استهلالية غلب عليها ورود الجمل الخبرية الوصفية،كما نجد ذلك في وصية الإمام للحسن عليهما السلام التي كتبها بحاضرين بعد منصرفه من صفين.

وغلبة الجمل الإنشائية على الجمل الخبرية،هي خصيصة أسلوبية لا تكاد تنفك عن أدب الوصايا الذي يعتمد أساسا على أساليب الإنشاء عموما وأساليب الطلب بشكل أخص؛ذلك أن أدب الوصية يرتكز على بنية عمادها أن الموصي يمتلك قدرا من المعرفة يؤهله أن يكون بموضع الموجه والمسدد للموصى إليه،الذي يكون بدوره أحوج ما يكون لهذه المعرفة،ولا سبيل والحال هذه إلا اعتماد أساليب الطلب من أمر ونهي واستفهام ونداء وتمن،إذ هذه الأساليب بصورها المختلفة هي التي تحقق هذا التأثير في المتلقي،وبمراجعة عجلى للوصايا المتقدمة يظهر واضحا أن أسلوبي الأمر والنهي قد حققا الحضور الأوفر من بين أساليب الإنشاء على الإطلاق .

الايقاع الصوتي:

كما يلحظ ميل الجمل في الوصايا عموما إلى تحقيق الإيقاع الصوتي عن طريق اعتماد أسلوب السجع الذي كان حاضرا بوضوح في مجمل الوصايا ،وهو مما يوفر التأثير المرجو من أدب الوصايا لأنه يتعامل في جانب منه على تحريك العاطفة وإثارتها لتحقيق العزيمة على المضي في الأمور. وهي ممن يتأثر بالوقع الصوتي ،وتستجيب له.

لا يكتفي الإمام في وصاياه بتوجيه الأمر أو النهي ؛وإنما يتبعه بذكر السبب الذي كان لأجله الأمر أو النهي ،وهو مما يدل على سعة علم الإمام بحقائق الأمور وبواعثها من جانب،ومن جانب آخر يحقق دافعا قويا للتمسك بذلك الأمر أو الامتناع عن ذلك المنهي عنه ؛لان علته قد اتضحت ،فالتحذير من الغضب ؛لأنه طيرة من الشيطان،والنهي عن المخاصمة بالقرآن سببه أنه حمال ذو وجوه،والأمر بالمحاججة بالسنة ؛لأنهم لن يجدوا عنها محيصا،والنهي عن أول سير الليل ؛لان الله جعله سكنا.الى غير ذلك من الوصايا المعللة.

الجمل القصيرة:

كما يظهر واضحا إن الجمل في أدب الوصايا تميل إلى أن تكون جملا قصيرة موجزة،وهو ما يؤهلها لان تكون مقبولة أكثر لدى المتلقي لان السامع يتمكن من متابعتها وتحصيل مطالبها بيسر وسهولة،فهي جمل اعتمدت على تركيز المعنى وتقليل المبنى،وهي خصيصة قد امتدت في غالب فقرات أدب الوصايا،

الجمل الطويلة:

لا نكاد نظفر بالجمل الطويلة إلا بعض فقرات الوصايا العملية التي ترد في سياق وصايا الوفاة والمتعلقة بكيفية التصرف في الأموال والإماء وما أشبه؛فقد جنحت الجمل فيها إلى الطول،كما نجد ذلك في وصيته بما يعمل في أمواله التي كتبها بعد منصرفه من صفين، فقد ورد فيها بعض الجمل الطويلة نسبيا،كما في قوله ــ ع ــ:

وَيَشْتَرِطُ عَلَى الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ الْمَالَ عَلَى أُصُولِهِ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ وَهُدِيَ لَهُ،أَلاَّ يَبِيعَ مِنْ أَوْلاَدِ نَخِيلِ هذِهِ الْقُرَى وَدِيَّةً حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً)[٣٠].

وقوله ــ ع ــ أيضا:(وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي ــ اللاَّتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ ــ لَهَا وَلَدٌ، أَوْهِيَ حَامِلٌ، فَتُمْسِكُ عَلَى وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ، فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ، قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا الرِّقُّ، وَحَرَّرَهَا الْعِتْقُ)[٣١].

ولعل السبب في ميل هذه الجمل إلى الطول يكمن في أن هذه الجمل أريد منها التفصيل والإيضاح،فهي تندرج ضمن الوصايا التي يُعمل بها بعد وفاة الإمام،فلا بد والحال هذه أن يحتاط لكل احتمال بما يناسبه؛ ولذا ناسبها أن تكون جملا ذات فقرات طويلة نسبيا ؛حتى يتسنى من خلالها أداء ذلك الإيضاح والتفصيل.

أما الأساليب التي استعان بها النص في تحقيق غرض الإيضاح والتفصيل فهي الجمل الاعتراضية،والجمل الشرطية،وأسلوب التكرار.

الحضور والغياب:

اعتمدت الوصايا على أسلوب الخطاب الموجه من الإمام (عليه السلام)للمتلقين على نحو مباشر،والإمام يتحدث بلغة ضمير المتكلم في غالب الوصايا ،كما في قوله :(أَنَا بِالأمس صَاحِبُكُمْ، وَأَنَا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ! غَفَرَ اللهُ لِي وَلَكُمْ!)[٣٢] وقوله: .**(أَنَا بِالأمس صَاحِبُكُمْ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ، إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ)**[٣٣]، ولا نجد حديث الإمام بضمير الغائب إلا في بعض فقرات وصايا الوفاة،كما في قوله ــ ع ــ : **(هذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُ اللهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِب أمير المؤمنين فِي مَالِهِ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، لِيُولِجَه بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَه به الأمنَة.**

منها:

فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذلِكَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيّ، يأْكُلُ مِنْهُ بِالْمعْرُوفِ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ فِي الْمَعْرُوفِ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ، قَامَ بِالأمر بَعْدَهُ، وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ. وَإِنَّ لِابْنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيّ)[٣٤].

فالإمام هنا يتحدث عن نفسه بصيغة الشخص الغائب؛فنجده بدلا من أن يقول :

هذا ما أمرتُ به .قال:(هذا ما أمر به عبد الله علي بن أبي طالب) وبدلا من أن يقول:في مالي .قال (في ماله) .وبدلا من أن يقول ليولجني،ويعطيني.قال: (ليولجه) و(ليعطيه).وبدلا من أن يقول:من صدقتي .قال: (صدقة علي) وبدلا من أن يقول:بنيّ.قال (بني علي)،كل ذلك بلغة ضمير الغائب،وهو ما يتناسب تماما مع وصايا الوفاة التي غالبا ما يعمل بها بعد رحيل الموصي إلى عالم الآخرة،فاختيار صوت الغائب استشراف لذلك المقام الذي سيكون فيه الموصي غائبا على وجه الحقيقة،وهو ما يحقق للوصية حضورا انفعاليا بحسبان أن الصوت الذي يخاطبهم قد أصبح غائبا عنهم. كما يُلحظ في خطاب الوصايا أنه يميل في بعض فقراته إلى الصبغة العمومية التي تمتد إلى كل الأفراد،كما في قوله ــ ع ــ :**(كُلُّ امرئ لاَقٍ مَا يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ، والأجل مَسَاقُ النَّفْس، وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافَاتُهُ)**[٣٥]

وقوله ــ ع ــ **(حُمِّلَ كُلُّ امرئ مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنِ الْجَهَلَةِ)**[٣٦]ولا شك أن الخطابات العامة التي تشمل الأفراد كلهم لها وقع مؤثر في النفوس إذ إنها تهيمن عليها بسطوتها الشاملة، ويوقن الفرد

عند سماعها بعدم إمكانية الإفلات منها،فهي تشمله مثلما تمتد لغيره،ولذا فاحتفاء أدب الوصايا بعبارات كهذه يعطيها بعدا واضحا في أسر المخاطب وشد انتباهه.ولهذا النوع من الخطاب العام أمثلة أخرى في كلام الإمام،منه قوله: **(فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخرة، وَلاَ تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ كُلَّ وَلَد سَيُلْحَقُ بِأَبِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)**[٣٧] وقوله: **(فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَاد يَوْمَ الْقِيَامةِ: أَلاَ إِنَّ كُلَّ حَارث مُبْتَلىً فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرآنِ؛ فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ)**[٣٨].ولعل من نافلة القول أن صياغة عبارات كهذه العبارات الجامعة لا يمكن أن يتهيأ إلا لمن أوتي حظا وافرا في فن القول والبصيرة الثاقبة، بحيث يتهيأ له أن يدخل كل الأفراد تحت ذلك الحكم من غير أن يشذ منهم أحد.

اسلوب الشرط:

كما يلحظ إن الوصايا احتفت على نحو خاص بحضور الجمل الشرطية حضورا واضحا،إذ أن كثيرا من هذه الوصايا ذهبت إلى فرض الاحتمالات الممكنة التي قد يتعرض لها المرء،ووضعت لكل احتمال ما يناسبه من حلول،وهو مما يؤشر بعد النظر والدراية الفاحصة بمجريات الأحداث،كما نرى ذلك في هذه الوصية للإمام الحسن ــ ع ــ : (فأن أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ وَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذلِكَ هَمّاً وَاحِداً، فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ أَنْتَ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ)[٣٩]

وقوله:

(وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلاَّ عَلَى مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنْ النَّعْمَاءِ، وَالإِبْتِلاَءِ، وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لاَ تَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَى جَهَالَتِكَ بِهِ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ جَاهِلاً ثُمَّ عَلِمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الأمر، وَيَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذلِكَ !)[٤٠]

وقوله :**(وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ، أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لأتتك رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ إِلهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ)**[٤١] والأمثلة على ذلك ظاهرة[٤٢].

هذه كانت ابرز الخصائص الأسلوبية التي ميزت أدب الوصايا في نهج البلاغة.

الهوامش:

(١) معجم النقد العربي القديم:٢/٤٤٠.
(٢) معجم مصطلحات الأدب:٤٣٠.
(٣) البيان والتبيين:١/٣٥٣.
(٤) المعمرون والوصايا:٨٨
(٥) م .ن:٨٩
(٦) التعازي والمراثي:٧٤.
(٧).(٧)بهجة المجالس وانس المجالس:٢/٢٤٨.
(٨).م .ن:١/٥٣٥.
(٩).(٩)التذكرة الحمدونية:٣/٣٢٩.
(١٠).م .ن:٣/٣٢٩ ــ ٣٣١.
(١١).لباب الآداب:١١.
(١٢).نهاية الأرب في فنون الأدب:٦/١٩.وينظر النص كاملا من ص١٩ ــ ٣٢.
(١٣).ينظر: حدائق الازاهر:الحديقة الرابعة (في الوصايا والحكم).
(١٤).المستطرف في كل فن مستظرف:١/٨٧.
(١٥).نهج البلاغة:١٢١،والروافغ:الواسعة.
(١٦).م .ن:١٣١ ــ ١٣٢،واستغلق رهينته:جعله بحيث لا يمكن تخليصه.
(١٧).م .ن:١٨٠.
(١٨).ينظر:م .ن:٢١٢ ، ٢٨٧، ٣١٢، ٣٣١، ٣٤٩، ٣٥٦، ٣٨٥، ٣٨٩، ٣٩١، ٣٩٢.

(١٩). م .ن:٥٩٤ ــ ٥٩٥.
(٢٠). م .ن:٥٩٥.
(٢١). م .ن:٥٧١ ــ ٥٧٢.
(٢٢). م .ن:٤٧٠ ــ ٤٧١.
(٢٣). .ن:٤٨١ ــ ٤٨٤،
(٢٤). م .ن:٤٦٩ ــ٤٧٠.وينظر :٣٣٩، ٤٧٢.
(٢٥). م .ن:٢٥٩ ــ ٢٦٠.
(٢٦). م .ن:٤٧٩.
(٢٧). م .ن:٤٧٩.
(٢٨). م .ن:٤٩٦.
(٢٩). م .ن:٤٨٠ ــ ٤٨١.
(٣٠). م .ن:٤٨٠.
(٣١). م .ن:٤٨١.
(٣٢). م .ن:٢٥٩.
(٣٣). م .ن:٤٧٩.
(٣٤). م .ن:٤٨٠.
(٣٥). م .ن:٢٥٩.
(٣٦). م .ن:٢٥٩.
(٣٧). م .ن:٨٤.
(٣٨). م .ن:٣١٧.
(٣٩). م .ن:٥٠٠ ــ ٥٠١.
(٤٠). م .ن:٥٠١.
(٤١). م .ن:٥٠٢.
(٤٢). ينظر: م .ن:٢٥٩ــ ٢٦٠، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨١.

المصادر والمراجع:

ــ القرآن الكريم
ــ بهجة المجالس وانس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس،ابن عبد البر(٤٦٣هـ)، تح:محمد مرسي خولي، دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان،ط٢، ١٩٨٢م.
ــ البيان والتبيين، الجاحظ(٢٥٥هـ)، تح:عبد السلام محمد هارون ،مطبعة المدني، مصر، ط٧ ،١٩٩٨م.
ــ التذكرة الحمدونية، ابن حمدون(٥٦٢هـ)،تح:إحسان عباس و بكر عباس، دار صادر، بيروت ـــ لبنان، ط١ ،١٩٩٦م.
ــ التعازي والمراثي، المبرد(٢٨٦هـ)، تح:خليل منصور،دار الكتب العلمية، بيروت ــ لبنان، ط١ ، ١٩٩٦م.
ــ حدائق الأزاهر في مستحسن الأجوبة والمضحكات والحكم والأمثال والحكايات والنوادر،أبو بكر بن عاصم القيسي الغرناطي (٨٢٩هـ)
ــ لباب الآداب،أسامة بن منقذ(٥٨٤هـ)،مكتبة السنة، مصر ــ القاهرة،ط١ ١٩٨٧م.
ــالمستطرف في كل فن مستظرف،الابشيهي(٨٥٠هـ)، مكتبة الجمهورية العربية،مصر، (د.ت).
ــ معجم مصطلحات الأدب، مجدي وهبة، مكتبة لبنان ــ بيروت ، ١٩٧٤م.
ــمعجم النقد العربي القديم ،د. احمد مطلوب،دار الشؤون الثقافية العامة بغداد،١٩٨٩م.
ــ المعمرون والوصايا،ابو حاتم السجستاني، تح :عبد المنعم عامر مصر،١٩٦١م،

ــ نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري (٧٣٣هـ)،نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب،المؤسسة المصرية، مصر (د. ت).

ـــ نهج البلاغة،مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالـــب عليـــه الســـلام،تح: د. صبحي الصالح، مطبعة وفا، إيران ـــ قم، ط٣، ١٤٢٩هـــ.

Abstract

Literafure of Commandments in the Approach of rhetoric (Nahgul_ Balaghah): a reading in the Features of Style

Commandments is one of the literary prose arts that the writings of Arabic literature has given them a widened room in their pages and allotted separate parts due to their utmost significance values and thoughts .they are condensed extraction of deep experiences in various aspects of life.

This study deals with inducing Imam Alis (PBUH) commandments being wise and eloquent It traces the books of heritage of Imam Alis(PBUH) commandments in general Then it turns to deal with his commandments in the Approach of rhetoric (Nahgul_ Balaghah)in particular .It has counted the art type of Imam Alis (PBWH) commandments then it goes to induce the stylistic features that the texts of commandments are characterized by and as follows :

- It observed in the guiding and educating commandments (as a commandment utterance) the prevalence of adjectival statements which tend to brevity and clarity of thought through rewarding it in another style .

R the commandments that (does not come as a commandment utterance) it is observed that the prevalence of the compositional sentences in general and the imperative and prohibitive mood , in particular

Commandments use assonance generally . -

Imam Ali (PBUH) does not direct the command and provision -

Only ,but he mentions the reason, behind it and that is known as "justification style" which denotes the deep knowledge .

- Commandments use the directed discourse (address) generally except in some of death commandments.

مجلة القادسية للعلوم الانسانية

مجلة علمية فصلية مُحكّمة

تصدر أربع مرات في السنة

تعنى بنشر البحوث الانسانية كافة